

الغزالي وعلم النفس

اللاشعور والعقل الباطن

للاستاذ حمدي الحسيني

- ٦ -

أما وقد انتهينا من التحدث عن الشعور ومظاهره الثلاثة : الإدراك والوجدان والتزوع في نظر الامام الجليل ابي حامد الغزالي ، فقد وجب علينا ان نتحدث عن اللاشعور في نظره ايضاً . وسترى في معرفة هذا الرجل العظيم باللاشعور أو العقل

للمين فيه مراد . ثم يسأله المهدي : من أي العجم أسلك؟ فيقول : من أكثرها في الفرسان ، وأشدّها على الأقران . أهل طخارستان ! ليت شمري ما يكون شعور الخليفة على هذا الذي يتزبد ويتعالى ، ويحدث عن نفسه وقومه هذا الحديث الغالي أمام خليفة لا يرى في الأرض يداً فوق يده ولا أحداً مع ذاته .

ولكنها نخبزة بشار في ذهابه بنفسه ومعرفة حقها . ولم يكن ططره بخال الخليفة وسخريته منه إلا ضرباً من احترام النفس . فقد حدثوا أن يزيد بن منصور الحميري ، دخل على المهدي وبين يديه بشار بنشده شمرا ، فلما فرغ بشار أقبل عليه يزيد ، وقال له : يا شيخ ! ما سئعتك ؟ فقار بشار سخرار : أتعب اللؤلؤ ! ، فضحك المهدي ثم قال لبشار : - أغرب ويك أنتنادر على خالي ! فقال : وما أصنع به ، يرى شيخاً أعمى ينشد شمرا ، ويسأله ما سئاعته ؟ .

إذن لم يهتم بشار لاستنكار الخليفة ، ولكنه مضى في تبرير سخريته وهزئه من خال الخليفة ، وامعري ما يكون هذا إلا من نفس مرة لا تلتوى ولا تتموج ، ولكن ذلك ولا شك تارك من السخيمة عليه في نفس الخليفة ما هو تارك !

هذا الحفاظ المر والخلق الوعر ، لا يصلح قط للاتصال بالخلق والاحتكاك بهم . لأنه يورث اللد والعتب ، بل يورث الانتقام من الخليفة إذا ما عرض كرامة الشاعر للجرح والتم .

الباطن ما يستثير إعجاب ذوى الأسباب من الماكفين على الدراسات النفسية الحديثة ، المارفين بأب اللاشعور أو العقل الباطن لم يكن معروفاً عند علماء النفس الى أواخر القرن الماضي حتى نشر العالم النمساوي العظيم سيجمند فرويد نظرياته في اللاشعور والتحليل النفسي .

أجل ، كان علماء النفس يمتقدون ان ايس في حياة الانسان النفسية غير الشعور ولكن علماء اليوم لا سيما مدرسة (فرويد) يمتقدون ان الشعور ليس سوى جزء صغير من حياة الانسان النفسية ، وأن سلوك الانسان في حياته ليس نتيجة هذه الخواطر والأفكار التي يكون الانسان شاعراً بها بل هو نتيجة تفاعل عوامل نفسية كثيرة . ولذلك لا يكون الانسان عالماً بها

وإن الخليفة لتنتلق نفسه دون بشار يوماً ، وإن بشار لينشده فيحمره الخليفة ، فينتلق الساعر إلى بيته فينتفتق ذهنه عن هذه القصيدة الحلوة المرة ، الغافرة اللازمة النازلة من الشعر الحر بأرفم منزل :

خليل إن المسر سوف يفيق وإن يسارا في غمد خلقيت
وما كنت إلا كالزمان : إذا صحا مسجوت ، وإن ما في الزمان أموق
خليل إن المال ليس بناغم إذا لم ينل منه أخ وصديق
وكنت إذا ضاقت على محلة تيممت أخرى ما على تضيق
ثم يختما بهذين البيتين الرفيعي الشاؤ الآخذين بنوابة الإحسان :

وما خاب بين الله والناس عامل له في التقى أو في المحامد سوق
ولا ضاق فضل الله عن متمف ولكن أخلاق الرجال تضيق ا
ومثلى . نفس الخليفة سخيمة على بشار ، فا يكاد يشي به يعقوب بن داود إلى المهدي ، حتى يتذرع هذا باسم الزندقة ، ويأمر به فيضرب بالمياط حتى تنقطع أنفاسه .

فيالك من شجاعة تورد صاحبها المتائف ، ومحملة على أوعر المراكب ، ولو قد أبصر بشار لقد نجا !

طامل السير شاهين

مبعوث الأزهر للى السوفان

ولا شاعراً بأثرها . فان الانسان يعمل في هذه الحياة ويتحرك مدفوعاً بموامل نفسية كثيرة مختلفة خفية عنه مستقرة في قرارة نفسه . ولا سبيل الى تسلطه عليها . لأنها ليست خاضعة لإرادته وليس له علم بها .

فاللاشعور اذن هو قرارة النفس وقاعها . تتجمع فيه ذكريات قديمة منسية وغرائز حيوانية ضارة لا يرضيها المجتمع كالفحشاء والشرب ومحبة النفس . وغواف كثيرة متعددة متضاربة . رء وأطف وامان وعادات تتفاعل بعضها مع بعض . توجه سلوك المرء على غير علم منه . ولهذا يمثل الملاء هذه الحالة النفسية بجبل ونحن نرى في هذه اللطيفة التي يفسر بها الفزالي معاني القلب والروح والنفس والعقل اللاشعور واضحاً جلياً ونرى العقل الباطن (في تفسيره للنفس بأنها المعنى الجامع لقوة الفرائز وتيارات الميول الانسانية) ظاهراً بيقياً . وكأن الامام الفزالي أراد ان يعطينا صورة واضحة لعلاقة العقل الباطن بالسلوك الانساني فلجأ الى التشبيه بالجبل وضرب المثل الحكيم فافترض ان للقلب أو العقل الباطن جنوداً كثيرة منها ما يرى بالأبصار ومنها ما لا يرى الا بالبصائر ، فوضع العقل في حكم الملك ، والجنود في حكم الخدم والأعوان ، أما الجنود المشاهدة بالعين فهو اليد والرجل والعين والأذن واللسان وحائر الأعضاء الظاهرة والباطنة جميعاً خادمة للعقل الباطن مسخرة له فهو المتصرف فيها وقد خلقت مجبولة على طاعته لا تستطيع له خلافاً ولا عليه تمرداً ، فاذا أمر العين بالانفتاح انفتحت ، وإذا أمر الرجل بالحركة تحركت ، وإذا أمر اللسان بالكلام وجزمه الحكم به تكلم . فجملة جنود العقل تحمها ثلاثة أصناف صنف باعث ومستحث إما الى جلب المنافع وأما الى منع الضرر ، وقد يميز هذا الباعث بالارادة . والثاني هو المحرك الأعضاء الى تحصيل هذه المقاصد ويمبر عن هذا بالقدرة . وهي جنود مبعوثه في سائر الأعضاء لاسيما العضلات منها والأوتار . والثالث هو المدرك المتصرف للاشياء وهي قوة البصر والسمع والشم والذوق واللمس ، وهي مبعوثه في أعضاء معينة ويمبر عن هذا بالعلم والادراك . ومع كل واحد من هذه الجنود الباطنة جنود ظاهرة وهي الأعضاء المركبة من اللحم واللحم والمصّب والدم والعظم التي أعدت آلات لهذه الجنود ، فان قوة

الجليد في البحر . فان الجزء الظاهر منه فوق سطح الماء صغير جداً بالنسبة الى الجزء المغمور فيه ؛ فالتيارات السفلية هي التي تؤثر في حركة جبل الجليد وتوجه تسييره . ولهذا قد يرى سائراً ضد التيارات البحرية السطحية رغم انها قد تبدو قوية أحياناً . فالتيارات السفلية والجزء المغمور في الماء نستبه اللاشعور وأثره في شعور الانسان ونوجيه سلوكه .

ولتر الآن هذا اللاشعور أو العقل الباطن في نظر الفزالي . ونحن لا نستطيع ان نعرف رأى الفزالي في هذا الموضوع الجليل قبل ان نعرف ان الفزالي تصدى لتفسير معاني القلب والروح والنفس والعقل فأعطى هذه الأسماء الأربعة معنى واحداً مشتركاً بينها جميعاً وهو ما نسميه نحن باللاشعور أو العقل الباطن ويسميه هو باللطيفة الربانية التي لها بالقلب الجسماني تعلق . وتلك اللطيفة هي حقيقة الانسان وهي المدرك المالم الماروف من الانسان والمخاطب والمقاب والمطالب . ولها علاقة مع القلب الجسماني .

وقد تحيرت عقول أكثر الخلق في ادراك وجه هذه العلاقة . وان تعلق القلب بها يضاهي تعلق الأعراض بالأجسام والأوصاف بأوصوفات والمستعمل للآلة بالآلة والتمكن بالمكان ثم يتعمق الفزالي في هذا المعنى فيقول « انه يراد بالنفس المعنى الجامع لقوة النضب والشهوة في الانسان وهي الصفات المذمومة التي تحتاج من أجلها الى مجاهدة وكسر . ويراد بالنفس أيضاً تلك اللطيفة التي هي نفس الانسان وذاته ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها فاذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة ، واذا لم يتم سكوتها ولكنها سارت مدافعة للشهوات متمردة عليها سميت النفس اللوامة . وان تركت الاعتراض واذفقت واطاعت لمتقاضى الشهوات سميت النفس الأمانة بالسوء . وعلى هذا فتكون النفس بالمعنى الأول مذمومة غاية الذم وبالمعنى الثاني محمودة غاية الحمد . ثم يقول ان العقل قد يراد به العلم بحقائق الأمور فيكون عبارة من صفة العلم الذي عمله العقل والثاني قد يكون تلك اللطيفة التي ذكرت من قبل .

مملكته ، فكذا النفس متى استقامت بالعقل وأدبت بحمية الغضب وسلطتها على الشهوات واستماتت بإحداها على الأخرى ، تارة بأن تقلل مرتبة الغضب وغلوئه بمخالفة الشهوة واستدراجها ، وتارة بقمع الشهوة وقهرها بتسليط الغضب والحمية عليها وتقييح مقتضياتها اعتدلت قواها وحسنت أخلاقها .

نرى فيما تقدم من القول ان الغزالي قد أدرك ببصيرته الفعالة وتأمله العميق هذا الشيء الذي سماه فرويد فيما بعد بالعقل الباطن ادراكاً كاملاً ، وعرف حقيقته معرفة صحيحة ، واطلع على وقائمه وخفاياه اطلاقاً واسماً حتى يخجل لنا ونحن نقرأ ما كتب الغزالي عن العقل الباطن وامراره ومكنوناته اننا نقرأ لفرويد أو أحد تلاميذه في القرن العشرين لا للغزالي في منتصف القرن الخامس للهجرة . ويبدو لنا جلياً فيما سبقناه الآن من أقوال الغزالي ان الغزالي عرف جيداً ان العقل الباطن في الانسان هو الانسان نفسه بما فيه من غرائز قديمة وميول فطرية وعواطف كامنة ورغبات مكبوتة وذكريات مستقرة . وانه المدرك العالم الماروف ، وانه المخاطب والمعاقب والمطالب . وعرف جيداً أيضاً العقل الواعي وحقيقته وانه ليس الا العلم والحكمة والتفكير ، وأن العلم والحكمة والتفكير بمنزلة الشير الناصح والوزير الماقل من العقل الباطن ، وعرف الصراع العنيف الذي يكون بين رغبات العقل الباطن ورغبات العقل الواعي .

وقد وصف هذا الصراع وصفاً دقيقاً جميلاً . وفوق هذا كله فقد اعطى قاعدة جلية الخطر في التربية وتوجيه السلوك الانساني وهي قاعدة الكف والتوفيق : كف الرغبات الضارة عن اشباع نفسها وكتبها عن تحقيق ذاتها وتسويل الطرق للرغبات النافعة للفرد نفسه أو لجنسه فتتبع نفسها وتحقق ذاتها يقول (ان النفس متى استقامت بالمقل أى العقل الواعي عقل العلم والحكمة والتفكير) وأدبت بحمية الغضب ، يعنى بحمية الغضب فريزة التقلب والسيطرة وسلطتها على الشهوات ، واستماتت بإحداها على الأخرى أى بفريزة على أخرى تارة بأن تقلل وثبة الغضب وغلوئه بمخالفة الشهوة واستدراجها ، وتارة بقمعها وقهرها بتسليط الغضب والحمية عليها اعتدلت قواها (أى مجموعة النفس الانسانية) وحسنت أخلاقها (أى سلوكها) .

صمري الحسيني

البطش إنا هي بالأسابع وقوة البصر إنا هي بالعين وكذ سائر القوى . والجند المدرك بعينه قد أسكن منازل ظاهرة كالحواس الخمس وبهذه أسكن منازل باطنة كتجاذيف ، الدماغ فان الانسان بمد رؤية الشيء بنمض عينيه فيدرك صورته في نفسه وهو الخيال ، ثم تبقى تلك الصورة معه بسبب شيء يحفظه وهو الحافظ ثم يتفكر فيما حفظه فيركب الجند بعينه ذلك الى بعينه الآخر ثم يتذكر ما قد نسيه ويعود اليه ، ثم جملة معاني المحسوسات في خياله بالحس المشترك بين المحسوسات ففي الباطن حسن مشترك وتخيل وتفكر وتذكر وحفظ . ثم يذكر الغزالي العقل الواعي وهو عقل المعرفة وعلاقته بالعقل الباطن في تدبير سلوك الانسان فيعطى العقل الواعي حق الرقابة على رغبات العقل الباطن وتصرفاته وسلوكه فيعمل كل هذا بدقة متناهية تدل على فهم عميق لنفسية الانسان العجيبة يقول (ان جند الغضب والشهوات قد ينفادان للعقل انقياداً تاماً فيعينه ذلك على طريقته الذي يملكه . وقد يستعصيان عليه استعصاء بنى وتمرد حتى يملكاء ويستعبدها وفي هذا هلاكه) وللعقل جند آخر وهو (العلم والحكمة والتفكير) وحقه أن يستعين بهذا الجزء على الجند الآخرين ؛ فان ترك الاستماتة وسلط على نفسه جند الغضب وبقية الشهوات هلك بيقيناً . ثم يضرب الغزالي الأمثال على هذا فيقول : مثل نفس الانسان في بدنه اعنى النفس اللاطيفة كتل في مدينته ومملكته ملك ، فان البدن مملكة النفس وعالم اومستقرها وقواها ، ومدينتها وجوارحها ، بمنزلة الصنائع والعملة ، والقوة المفكرة له كالستشير الناصح والوزير الماقل ، والشهوة كالعبد السوء يجلب الطعام والميرة إلى المدينة ؛ والغضب والحمية له كصاحب الشرطة ، والعبد الجالب الميرة ككذاب مكار خداع خبيث يتمثل بصورة الناصح ويحث نصحه الشر الهائل والسلم القائل ، ودينته وعادته منازعة الوزير الناصح في آرائه وتديبراته حتى انه لا يخلو من منازعته ومعارضته ساعة . كما ان الوالي في مملكته اذا كان مستعينا في تدبيره بوزيره ومستشيراً له ومبرحاً عن إشارة هذا العبد الخبيث مستعدلاً بإشارته في ان الصواب في تقيض رأيه وأدبه وجعله مؤتمراً له ومسلطاً من جهة هذا العبد الخبيث واتباعه وأنصاره حتى يكون العبد مسوساً لا سائماً ومأموراً لا آسماً استقام أمر بلده وانتظم العدل في